على كاهل الاسرائيليين، جنوداً وغير جنود. اصبحت الارض المحتلة، في مناخ الانتفاضة، ساحة متفجّرة طيلة الوقت، وليس بشكل موسمي، أي كلما كانت هناك خشية من نشاط فدائي، أو عملية فدائية هنا، أو هناك؛ وصارت المناسبات الوطنية تحصى بعدد أيام العام كله، وليس في أيام معلومات، كما كان الامر في السابق. وقد يكون للاحتلال الاسرائيلي خصائصه الذاتية، مقارنة بالنماذج الاستعمارية؛ لكنه يشترك مع النماذج كافة في كونه يعتمد، في استقراره، على اذعان السكان، ولو في حدود نسبية. فالالتزام بأوقات التجوّل وحظر التجول، والحصول على تراخيص للعمل والحركة والمرور، وعدم الاتصال بمنظمة التحرير الفلسطينية او التجاوب معها، وعدم رفع الشعارات الوطنية، وعدم تنظيم الاجتماعات والتجمّعات الوطنية، وأمور كثيرة أخرى تحتاج الى اذعان سكان الارض المحتلة وتجاوبهم مع أوامر السلطات وقراراتها. لذا، فقد عمدت الانتفاضة الى كسر قاعدة الاذعان بمطالبة الجماهير بعدم التجاوب مع تعليمات المحتلين، والاستجابة، فقط، لما يصدر عن القيادة الفلسطينية. وفي ذلك ارهاق لسلطات الاحتلال، التي اضحى عليها ان تستنفر قوى وجهوداً لاجبار السكان على التماثل مع قراراتها، وأوامرها، ونواهيها المهدّدة بالأفول لصالح سلطة وطنية خارجة على ارادتها.

٧ ـ لا تعاطف مع الفلسطينيين من جانب «شعب الله المختار»

ان نجاح المقاومة المدنية يفترض، فيما يفترض، وجود رابطة ما وقدر من التعاطف بين المستعمرين والشعب الواقع تحت الاستعمار، ممّا يؤدي الى استجابة المستعمرين، في النهاية، لمطالب الشعب المستعمَر. وهذا لا يتوفر في الحالة الفلسطينية، لأن الاحتلال الاسرائيلي يقوم على اعتبار ان الفلسطينيين اناس أدنى مرتبة من الاسرائيليين، ولا يستطيع الفلسطينيون، مهما فعلوا وتحمّلوا من معاناة، ان يحولوا بين الاسرائيليين وبين اعتقال، ومعاقبة، عشرات الآلاف من الذين يقومون بالاحتجاجات اللاعنيفة. واليهود يؤمنون بأنهم «شعب الله المختار»، ممّا يجعلهم لا يعترفون بالفلسطينيين شركاء متكافئين في جهود التسوية. ويترافق ذلك مع ايمان اليهود بأن الارض التي يحتلونها هي «أرض وعدهم الله بها»، وذلك مبرر كافٍ لديهم للتمسّك بطرد الفلسطينيين، والاستيلاء على أرضهم بالقوة. واللاعنف سوف يقدّم ذريعة مضافة لطرد الفلسطينيين الذين يشاركون فيه.

وتعد هذه الحجة من أكثر الحجج منطقية وموضوعية. ويمكن، بالاضافة الى ما تضمّنته الاشارة الى ان المشروع الصهيوني قد نهض ليس فقط على أساس التفوّق العنصري على الفلسطينيين، والعرب بعامة، ولكن، أيضاً، على أساس ان لا وجود للفلسطينيين أنفسهم، وان الارض الفلسطينية خلو من السكان! وقد استمر هذا التجاهل منذ بداية المشروع الصهيوني وحتى وقت قريب. ففي أواخر الستينات سألت رئيسة الوزراء الاسرائيلية، غولده مئير، عن وجود الشعب الفلسطيني؟ وعلى غير ما هو شائع، فان الفكر الصهيوني هو الذي جعل من طبيعة الصراع على ارض فلسطين صراع وجود منذ وقت مبكر؛ وثمّة حركات سياسية اسرائيلية معاصرة تتبنّى هذه النظرة[٤٦]. والسؤال، هنا، هو هل ساهمت الانتفاضة في تأجيج هذه المقولات والافكار الصهيونية، أم انها وضعتها موضع المراجعة؟ لقد ظهرت قوى سلمية داخل المجتمع الاسرائيلي وانتشرت تحت أسماء مختلفة قبل اندلاع الانتفاضة بنحو عقد من السنين؛ لكن عشرات الحركات الاخرى ولدت في اثناء تفاعلات الانتفاضة نفسها ومعظمها بدأ يتخذ موقفاً يقوم على الحوار المباشر والاعتراف المتبادل مع الشعب الفلسطيني. غير ان هذه الحركات ما زالت محدودة، من حيث نسبتها الى المجتمع الاسرائيلي وفاعليتها السياسية[٤٧]. وفي مقابل هذه الاتجاهات، ظهرت حركات أكثر ارهابية بحق الشعب الفلسطيني. وهكذا، فان الانتفاضة قادت الى تعميق حالة الاستقطاب داخل التجمّع الاستيطاني الصهيوني